سنوات الثورة والاعتقال

نبيل فرج

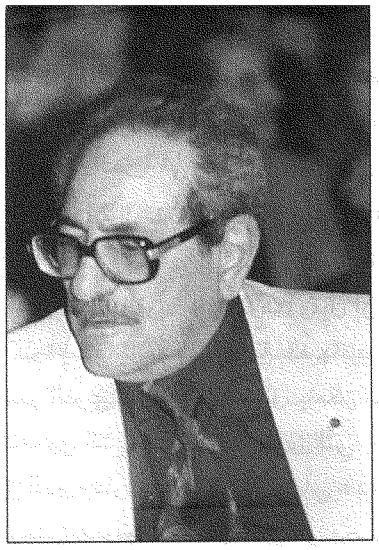

حين اعتُقِلَ أخي ألفريد فرج في ٢٨ مارس (آذار) ١٩٥٩، كنتُ في الثامنة عشرة من عمري، أدرس في كلية الآداب في جامعة الإسكندرية، وأتابع ـ بكل ملكاتي المتفتّحة على العالم ـ الحركةَ الأدبيّةَ في مصر والوطن العربي، وأحاول أن أشارك فيها بالإبداع، والنقد، واتّساع المعرفة.

وعلى الرغم من أنه مضى الآن على هذا الحدث الأليم ما يَقْرب من أربعين سنة، فما زلتُ أذكر وقعه القاسي على الأسرة.

كان ألفريد أيامها على مشارف الثلاثين، زهرةَ الأسرة ومناطَ فخرها في كل مكان. تطالع صورَه في الصحف والمجلات، وتقرأ له، وتسمع صوته في الإذاعات. تخرّج من كلية الآداب عام ١٩٤٩ قبل أن يبلغ العشرين. وبعد سنوات قليلة عمل فيها في المدارس الأهليّة بالاسكندرية، انتقل إلى القاهرة في أوائل الخمسينيات، تطلّعاً إلى مستقبل أرحب في بيئةٍ ثقافية متحضّرة لا تتوفّر في المدن الراكدة.

وفي القاهرة كان هناك جيل كامل من المثقّفين والكتّاب الشباب، يشقّ طريقه في الحياة الأدبيّة، مزوّداً بتجارب ومفاهيم ورؤى تختلف عن تجارب ومفاهيم ورؤى الجيل، أو الأجيال السابقة، التي يمثّلها طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومحمد حسين هيكل، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيات، ومحمد فريد أبو حديد.

ويمكن أن نلخّص موقفَ هذا الجيل، الذي ارتبط بثورة ١٩٥٢، في رغبته الحارقة في تحطيم كل الأبنية القديمة المتداعية، لكي يقيمَ على أنقاضها عالمهُ الجديد، وأدَبَه الجديد الذي يعكس ـ في لغته وشكله ومضمونه ـ حركةَ الواقع المتغيّر، ويساهم في صنع هذا الواقع في سياق المتغيّرات السياسية والاجتماعية الشاملة للخمسينيات ولتحوّلات الزمن.

من أسماء هذا الجيل من الكتاب والشعراء والنقّاد: يوسف إدريس، صلاح عبد الصبور، محمود أمين العالم، عبد الرحمن الشرقاوي، حسن فؤاد، صلاح جاهين، فتحي غانم، يوسف الشاروني، لويس عوض، علي الرّاعي، محمد مندور، نعمان عاشور، وعشراتٌ غيرهم من الذين رفعوا شعار «الأدب في سبيل الحياة،» في مواجهة التقليديين من جهة، الذين يتمسكون بتراث الماضي، أو الذين آمنوا بالفنّ للفنّ من جهة ثانية.

وكانت البداية بالنسبة إلى ألفريد فرج هي الكتابة الصحفيّة في بعض الصحف والمجلات، مثل: **الزمان**، **الغد**، **روز اليوسف**، **الجيل الجديد**. وقد انتهت هذه المرحلة بتعيينه سكرتيراً في مجلة **التحرير** في ١٩٥٥، بعد انتقال تبعيتها من إدارة الشؤون العامة للقوات المسلّحة إلى دار التحرير. وتُعتبر أولى المجلات التي أنشأتها ثورة ١٩٥٢، وتولّى الإشرافَ عليها في مرحلتها الأولى أحمد حمروش، ومن بعده ثروت عُكاشة.

ولم يلبث ألفريد أن نُقل من مجلة **التحرير** إلى جريدة **الجمهورية**، مشرفاً أدبياً مع أحمد رشدي صالح، وفيها تجلّتْ قدراتُهُ على الكتابة والنقد.

وأثناء وجوده في جريدة **الجمهورية** قَدَّمَ له المسرحُ القومي في ديسمبر كانون الأول ١٩٥٦، في أعياد نصر بور سعيد على العدوان الثلاثي، مسرحيةَ **صوت مصر** في

سهرة مسرحية اشترك فيها معه نعمان عاشور ومحمد عبد الرحمن خليل. وقد ظهر في مسرحية ألفريد انفعالُهُ بأحداث الوطن، وارتباطُ حريّة هذا الوطن بحرية مواطنيه، من الرجال والنساء، وبقضية الحرية في العالم.

غير أنّ البداية الحقيقية التي ارتبط بها اسم ألفريد فرج بتاريخ المسرح المصري كانت مسرحية **سقوط فرعون**. وقد اعتُقل ألفريد على أثرها، وقيل إنّ من أسباب اعتقاله: كثرة إسقاطاتها السياسيّة. ففيها يبدو اخناتون، حاكم مصر الفرعوني، متعثِّرَ الخَطْو، يتمكّن منه خصومُهُ نتيجةً للفروق الشاسعة بين المبادئ التي يدعو اليها، والتطبيق الذي يمارسه. وفيها تتجلّى عدمُ قدرة هذا الحاكم على غرس هذه المبادئ في وجدان الناس البسطاء. وقد كتب ألفريد هذا كلّه في مرحلة سياسية كانت فيها السلطة في مصر تتخوّف بشدة من الشعب ومن المثقّفين، وبخاصّة الكتّاب من طراز ألفريد فرج، أصحابِ الآراءِ السياسيّة والمواقفِ النقديّة الواضحة، الذين لا يؤمنون بأنّ القيم التي ترفعها هذه الثورةُ هي، وحدها، المقياسُ الذي توزن به الأفعالُ والأحداثُ، وإنما يطرحون مقاييسَ أخرى لنُظُم الحكم إزاء صراعها ضد الاستعمار والتجزئة، وإزاءَ عجزها عن حلّ مشاكل المجتمع، وتحقيقِ أمانيه في العدل والديموقراطية والتحديث.

وما حدث لألفريد فرج يؤكد هذا الوضع. فرغم أنه لم يكن ينتمي قطُّ إلى التنظيمات الشيوعيّة التي يرجع معظمُها إلى الأربعينات، بل كان يعتبر نفسه دائماً ضمن التيّار الناصري الوحدويّ الاشتراكي، فإنه لم يَسْلم من شكّ السلطة فيه أو سوء ظنّها به.

وربما كان أكبَرَ أخطاء هذه الثورة اختلاطُ الحقائق في يقينها بالشُّبُهات، وعدمُ تفريقها بين مَنْ ينقدونها مِنْ موقع الانتماء إليها ـ مثل ألفريد فرج ـ وبين مَنْ ينقدونها مِنْ موقع العداءِ والعودة بالوطن إلى ما قبل ١٩٥٢.

ولهذا فبينما كان اسمُ ألفريد فرج يتألّق في حياتنا الأدبية، ويُعِدُّ العدّةَ لخلافة توفيق الحكيم بمنهج أكثر عقلانيةً ووعياً، وبإنتاجٍ فنيٍ أكثر إحكاماً، جاء خبرُ اعتقاله على الأسرة كالصاعقة.

وما زلتُ أذكر الحزنَ الذي شمل الأُسْرةَ كلَّها، كبارَها وصغارَها. وما زلت أذكر الأيام المكفهرّة التي انقطعتْ فيها أخبارُ أخي ألفريد.

ويكفي أن أقول إنّ أمّنا توفيتْ فجأةً في الشهور الأولى من اعتقال أخي، وتحديداً في الفترة التي انقطعتْ فيها أخبارُه. وكانت أمنا قد أمضتْ هذه الشهور في البكاء عليه، والحسرةِ على شبابه الضائع.

ولم يشأ أحدٌ من الأسرة أن يَذْكر له ـ فيما بعد ـ خَبَرَ وفاتها، حتى لا نزيد من أحزانه. وكان مؤلماً للغاية أن تحمل رسائلُ ألفريد إلى الأُسْرة تحياتِه إليها، وتمنياته الطيّبةَ لها، وهي في قبرها المحكم تحت التراب!

ولمدة طويلة بعد وفاتها الفاجع، كان اللّيلُ يأتيني بالوحدة والخوف والأرق. وكثيراً ما كنت أغادر المنزل في حيّ محرّم بك، في أوقات متأخرة من الليل، عندما أعجز عن اجتذاب النوم، وأجوبُ طرقات المدينة الصامتة على غير هدى، تحت الظلام، كأني أجوب فضاءات الأبدية، إلى أن يختَفي القمرُ ويطلع الفجرُ، وأشعر بالتعب من التفكير فيما تصنع الثورةُ بأبنائها منذ أول يوم في ١٩٥٩، وما ستتركه هذه الأحداثُ من عقابيل في حياتها بعد انقشاعها.

وتعود بي الذاكرة إلى أزمة مارس ١٩٥٤ التي رَجَحَ فيها سلطانُ الحكم المطلق على الحكم الديموقراطي، وغلب فيها أيضاً فكرُ الثورة التوفيقي، وأفقُها الغائم، وكلُّ صور اختراق حقوق الإنسان.

ولأنّ أبي كان أصلب عوداً، فقد تحمّل ـ وهو على المعاش ـ سنوات الاعتقال بكل ما أحاط بها من عناءٍ وأخطارٍ وملاحقةٍ وسعيٍ متواصل للإفراج عن ألفريد، في مكاتب المسؤولين ما بين الإسكندرية والقاهرة، وتوفي بعد خروج ألفريد من المعتقل، وقد تجاوز السبعين.

وكانت المخاوف الكبرى التي أَلَمّتْ بأبي، وسبّبتْ له القلق، ألاّ يجد الفريد عملاً بعد الإفراج عنه، لأنه كان قد فُصِل من **الجمهورية** قبل اعتقاله، وهو ما حدث بالفعل في الفترة التالية، فاضطرّ ألفريد إلى التقدّم للحصول على منحة التفرّغ. وتحوي ملفّاتُ إدارة التفرغ خطاباً مؤثّراً بقلم ألفريد فرج من صفحة واحدة، يطلب فيه ببيان ناصع هذا الحقّ الذي تمنحه الدولةُ للموهوبين من مواطنيها.

أكبر أخطاء الناصرية هو عدم تفريقها بين مَنْ ينقدها من موقع الانتماء إليها ـ مثل ألفريد فرج ـ ومن ينتقدونها من موقع العداء لها

أما زوجته فقد كان الفريد يحضّها على النزهة والبهجة، حتى يخفّف من آلامها ومن إحساسها بالوحشة، بعد أن أصبحت كلُّ شيء في حياته. وتقتضيني الأمانةُ أن أعترف أنها عملتْ بهذه الوصيّة على الوجه الأكمل!

وبعد الإفراج عنه في ٧ فبراير (شباط) ١٩٦٣، حملتُ تموينَ الأسرة الشهري من الزيت والشاي والسكّر والأرز والصابون، وسافرتُ به إلى القاهرة في قطار الدرجة الثالثة وقدّمتُ له مرتّبي ـ وكانت القوى العاملة قد عيّنتني في فبراير (شباط) من العام السابق ـ وطلبتُ منه أن يقبل تنازلي عن مرتّبي بالكامل إلى أن تستقرّ أمورُهُ، وتتحسّنَ أحوالُهُ، مهما طال الزمن.

وأرجو أن يصدّقني القارئ إنْ قلتُ إني لم أكن أشعر البتة بأني أفعل شيئاً خارقاً، لأني كنت أستطيع أن أدبّر أمور حياتي في الإسكندرية بقروش قليلة، وأمنحه روحي الفتية.

غير أنه رفض بشدّة، مردِّداً إحدى العبارات التي تتكرّر في **ألف ليلة وليلة** عن الحكايات العجيبة، وهي أنها لو كُتبتْ بالإبر على آماقِ البصر لكانت عبرةً لمن اعتبر.

ومع هذا فإنّ تنكّر ألفريد لي، وحرصَه على إبعادي عنه دون سبب مفهوم، وتقريبَ مَنْ هم أقلُّ مني، جعلت بعضَ المثقفين في مصر يظنّون أني «بلدياته»، أو ـ على أحسن الفروض ـ من أبناء عمومته. ومنهم مَنْ كان يُسرف في الظن، ويعتقد أنّ ما يجمع بيننا تشابُهُ أسماء، لا أكثر.

ولكنّ تعمّده الدائم إغفالَ اسمي في وقائعَ أكُونُ طرفاً أساسياً فيها ـ مثل عثوري على كتاب لويس عوض الضائع: **مذكرات طالب بعثة**، أو حديثِهِ المتكرّر عن نشأته ـ عَمّقَ الحفرةَ الفاصلة بيننا، بدرجة تحتاج إلى تحليل علماء النفس، لا لأنها تخالف كلَّ الأعراف فحسب، وإنما أيضاً لأنها تخالف الطبيعة الإنسانية السويّة، ومشاعرَ الأخوة الفطرية التي كان يجيد التعبير عنها حين كنت أتمتّع بثقته وحبه، وتضعنا أمام حالة من الجحود والنكران، نرى فيها مَنِ اختار لنفسه مهنةَ الكتابةِ والحكمةِ وتجميلِ الحياة يُشوِّهُ بإصرارٍ لا يخطئ علاقةً أخويةً كان يصفها في رسائله لي بأجمل الصفات، ونرى فيها مَنْ يتغنّى أدبُهُ بحبّ شعبه وتأكيد الروابط الحميمة في المجتمع لا يعرف كيف يحفظ صلته بأقرب أفراد أسرته إليه!

وأنا أكتب هذه الكلمات وفي ذهني كلُّ التراجم والسِّيَرِ التي تمثّل منذ أوائل القرن العشرين نمطاً حديثاً في الكتابة يتسم بالصدق والصراحة، راجياً ألاّ أكون أقلَّ منها في الجرأة على تقديم الحقيقة، ولو اختلفتْ صورتُها عن الصورة التي يرسمها «ألفريد» لنفسه، أو يرسمها له الكتّابُ، وذلك بذكر العيوب إلى جانب المحاسن، وعدمِ تجنّبِ السخرية أو التهكم، ما دامت هادئة ومهذّبة.

وأثناء اعتقال «ألفريد» الذي دام خمس سنين، أصيب في منتصفها بالتيفوئيد أو الحمّى ـ لا أذكر. وخوفاً من انتشار العدوى في المعتقل، نُقل إلى مستشفى الحميّات بالعباسية. ولم أكد أعلم بوجوده في المستشفى ـ وكنت ما أزال أقيم في الإسكندرية ـ حتى سافرتُ إليه مع أحد أخوتي، وقلبي يخفق في صدري. واستطعنا أن نقفز في غبش المساء من فوق الأسوار الشائكة، من الواجهة الخلفية للمستشفى. وعبر خرابةٍ جهمة وأعشابٍ برية مضينا دون أن يعترضنا أحد سوى نباح الكلاب الضالّة، إلى أن التقينا به في غرفة ضيقة جداً، وسط حراسة مشدّدة.

لم يدم اللقاء الذي اخترق كلَّ المحاذير والممنوعات إلا دقائق معدودة. ولكنها كانت كافية ليطمئنّ أبي وكلُّ أفراد الأسرة في الإسكندرية إلى أنه بخير.

ورغم الإعياء الشديد الذي بدا على «ألفريد» من المرض والاعتقال وسوء الأوضاع والغربة، والنحافة الشديدة التي هالتني، فقد كان متماسكاً، مقدِّراً للظرف المؤقت الذي يمرّ به، ويمرّ به الوطنُ، ولا يفقد الأمل في انتهائه.

والذين يعرفون «ألفريد» عن قرب، يعرفون جَلَدَهُ، وعدم تبرّمه بأحد، إلا إذا كان يضمر من التبرم غاياتٍ أخرى تتخفى وراءه.

وبين أوراقي الخاصة، التي لا يطّلع عليها أحدٌ، مجموعةٌ من الرسائل التي كتبها «ألفريد» لي، ولأبي، ولزوجته، تلقيتها بالبريد العادي، أو كانت مهرّبة مع أشخاص، أغلبها من معتقل الواحات أو معتقل الفيوم. ولن تتكامل صورةُ هذه الأيام المفزعة إلا بنشرها، كما هي. وأرجو أن أوفّق في تقديمها للقراء في المستقبل.

القاهرة

قفزتُ من فوق الأسلاك الشائكة، ولم يعترضني سوى نباح الكلاب، الى أن التقيتُ به في غرفة ضيقة